الواقع والواقعية الروائية

مبارك ربيع

إذا صح ان انماط التعبير بصفة عامة والأدبي بصفة خاصة تنطبع بطابع عصرها، وإذا صح هذا الفرض بالنسبة للفن القصصي في فترة ما، فأولى به أن يصح بالنسبة لعلاقة واقعنا الحالي بواقعنا في الرواية العربية. إن واقعنا اليومي حالياً يمثل أزمة حادة ليس فيها أي اصطناع وعلى جميع المستويات، وهذا يبرر مواقفنا في التساؤل والنقاش والانتقاد وإعادة النظر والتقييم ازاء كل ما يعرض لنا، ما فينا وما حولنا.

إن الصدمة ولدت هذا الوعي الحاد وفجرته في كل اتجاه، وهي ليست صدمة هزيمة آنية عسكرية أو حضارية فحسب، بل صدمة على مستوى الوعي بالطموح وبمقتضيات التطور والتقدم المادية والمعنوية في تناقضها مع قيود التجمد والتبعية وعوامل الإعاقة والقصور؛ مأساة الفكر الذي يحلل ويستخلص لكنه يعجز عن التنفيذ نتيجة فائض معوقات يكتسي في النهاية طابع الكسل بل يصبح مساوياً له مؤدياً إلى انخفاض الإنتاج والتبعية ومزيد التخلف... إلى آخر السلسلة المفرغة التي نبدأ منها وننتهي إليها في واقعنا، ان التجربة معروفة وتتكرر كل يوم: خذ مجموعة فيران واجعلها بحيث يصعقها التيار كلما أتت حركة وعودها على ذلك حتى تتشبع تجمدها مستسلمة ساكنة كسولة لفترة طويلة حتى بعد قطع التيار ومع وجود دافع الجوع القوي ووجود الطعام. فإذا استبدلت الأطفال بالفيران والراشدين بالأطفال فأنت أمام أزمة هذا الوعي الذي يطل أمام الواقع المحدود وفائض المعوقات يغذي نفسه، واقعاً في كثير من الأحيان في خيوط من نسجه دائراً على نفسه. اعتقد ان كثيراً من صور هذا الوعي تتجلى في حياتنا الثقافية العربية بما فيها على الخصوص من محاولات مستمرة لتقييم واقعيتنا الروائية في طبيعتها في علاقتها بالواقع، في دورها ووظيفتها في معركة التقدم والتطور والتحرر والتحرير.

ويبدو ان كثيراً من ضروب الالتباس عند التصدي لمثل هذه الأسئلة تأتي من عيوب منهجية عند الانطلاق من تعريفات او نتائج او وراء هذه التعريفات والنتائج التي تريد ان تكون شاملة او جامعة مانعة، وربما امكن عن طريق معاكس تجاوز كثير من هذه الالتباسات عند سلوك نهج إجرائي وهو ما سنحاوله في هذا التدخل.

الواقع وظاهرة التجاوز:

إن أهم مراحل الوعي، وابسطها ايضاً هي تلك المرحلة التي يصل فيها الإنسان إلى مرحلة التمييز بين ذاته من جهة وموضوعات العالم الخارجي من جهة ثانية اي ما يمكن ان يطلق عليه التمييز بين الانا واللا أنا ويحتوي هذا المظهر من الوعي على مستويات ثلاثة أساسية: مستوى إدراك التمايز بين موضوعات العالم الخارجي؛ ومستوى إدراك تمييز الذات عن تلك الموضوعات او التمايز بين الذات والعالم المحيط بها؛ ومستوى إدراك هذه الذات كموضوع من جملة الموضوعات.

فمن هذا المنظور يعرض الواقع مرادفاً للمدرك من حيث هو العالم الخارجي كموضوعات متمايزة عن بعضها ومتمايزة عن الذات. ومن حيث هو ذات مدركة تدخل ضمن هذا الواقع وتتميز عنه.

وتقتضي عمليات التكيف الأساسية فيما تقتضي تمثيل Assimilation هذا الواقع وخاصة العالم الخارجي لاستغلاله كغيره، كما تقتضي ايضاً تغييراً في الذات لتتوافق مع العالم الخارجي إذا لم يكف التمثيل، ومن الواضح أن الكائن الحي والإنسان بالذات تظهر فاعليته وإيجابيته في موقف التمثيل اكثر، مما تتجلى في موقف التوافق بتغيير الذات لصالح الموضوع، ومن الواضح ايضاً اننا إذا حاولنا أن نتصور مستوى من هذا التكيف يمثل حالة خاصة او شاذة بالنسبة للإنسان، لتصورناه يقتصر على الفعاليات البسيطة السطحية في تعامله مع الواقع أي اكتفائه بالاقتيات بما يقدمه له الواقع جاهزاً او قابلاً لأبسط المعالجة مثلاً، ولوجدناه يسكن في المآوي الطبيعية او الاقرب إلى ذلك وهذه هي مستويات التكيف التي تمارسها الكائنات الحية عدا الإنسان وهي القائمة على الميول او الدوافع الأولية لحفظ الحياة.

لكن المدخل الأساسي لفهم فعاليات الانسان في تعامله مع الواقع هي مفهوم التجاوز Le dépassement الذي يعني الاحتفاظ بالشيء المتجاوز من جهة مع وضع حد ورسم نهاية لحالته الاولى قبل عملية التجاوز

وبتعبير آخر يتضمن التجاوز الاحتفاظ بدرجة ما على الشيء في بعض مكوناته في حالة غير حالته الأولى حيث يتخذ شكلاً آخر او مظهراً آخر يكون ارقى، وربما يغير هذا الشكل من

وظيفته ليجعله صالحاً لوظيفة اخرى. إننا لو اردنا استخدام مصطلح فلسفي لقلنا انه الاحتفاظ على جوهر الشيء إلا اننا نبتعد عن ذلك الاستخدام لا تجنباً لفلسفيته، فحسب، بل لعدم صلاحيته لأن التجاوز يتضمن ايضاً الاحتفاظ بما هو عَرَضي.

إن مفهوم التجاوز على هذا النحو ضروري لفهم الفعاليات الإنسانية السامية ومنها العمل الروائي، وان كان هذا يقلق منذ الوهلة الأولى لانه قد يحيل إلى بقايا مثالية او متافزيقية في فهمنا للأدب. ومن اجل دفع مثل هذا القلق يمكن ان نفحص بعض مظاهر هذا التجاوز.

إن موقف الانسان المتجاوز للواقع يمثل في مظاهره البسيطة موقف الانسان العادي في تعامله مع العالم، موقف الباني الذي يشكل من خليط الحجر والتراب صرحاً شامخاً؛ وموقف الطيان الذي يصنع من مزيج الطين آنية وهكذا في مختلف الصنائع ذات العلاقة بالحياة اليومية الجارية.

هناك دائماً المواد الخام وهناك التشكيل على نسق الواقع وإعادة التشكيل وهناك تطوير الوظيفة، ومن الواضح ان هذا التجاوز في هذا المستوى يؤدي وظيفة آنية عملية تلبي احتياجات الانسان، لكن هناك مستوى آخر يمثل مظهراً خصوصياً للتجاوز الذي لا يقف عند حدود الوظيفة الاولية للانتاج بل يتعداها بحيث يبدو وكأن عملية التجاوز اصبحت مستقلة بذاتها، وإنها هي ذاتها هدف بغض النظر عن وظيفتها. نشاهد ذلك من موقف الصانع الذي لا يقف عند الحد الوظيفي فيها يصنعه، بل يتجاوزه إلى ما يحقق المال او الاكتفاء فيتفنن في أساليب التزيين والزخرفة والتشكيل.

ان هذا المستوى من التجاوز يستحق بالفعل ان يطرح بصدده السؤال كيف؟ ولماذا؟.

ولا صعوبة في الجواب بعد ما تقدم لان قوانين التعلم والنمو توضح ذلك، فمستوى الفن للفن والجمال للجمال، إذا صح انه يوجد فعلاً مستقلاً عن وظيفته لا يخالف قوانين الاشراط، بل يمكن ان نفهم بسهولة ان ارتباط التجاوز بالوظيفة الاولية عندما يصل إلى درجة من التشبع والتثبت يمكنه ان يستقل عن هذه الوظيفة وعن الحاجة الاولية ولو مؤقتاً ولا سيما عن طريق الاستمرار فيه حتى يبلغ الاشراط مرتبة التعود القصوى. وظاهرة نمو العلاقات والحالات الوجدانية في الكائن البشري تفسر ذلك.

هناك ارتباط بالموضوع في البداية ينشأ عن تلبية الحاجة ثم لا يلبث ان يصبح استجابة وجدانية للموضوع بغض النظر عن وظيفته وبمعزل عنها. وتتدخل في نشأة ذلك عوامل كثيرة ستأتي فرصة التعرض لها.

وهنا يمكن ان يعرض سؤال كالتالي: اليس هذا المظهر لعملية التجاوز يعتبر انحرافاً له؟ نترك الجواب مؤقتاً وننتقل إلى محاولة تبين طبيعة الواقعية الروائية ونوعية علاقتها بالواقع على ضوء عملية التجاوز.

القدرات الابتكارية:

ان عملية التجاوز كما يمكن ان تتم على المستويات البسيطة وتكتسي بالتالي طابع البساطة في الظاهر على الأقل، يمكن كذلك ان تتم على مستويات معقدة يمكن توضيحها بتحليل بعض العوامل التي ستدخل في عملية التجاوز. هذه العوامل نذكر منها على الخصوص:

القدرة التعبيرية والقدرة التخيلية، وهما نتيجة تفاعل ونمو عدة قدرات. ومن زاوية النمو تعتبر ذات دلالة كبرى على التقدم في سلم الارتقاء، ان عملية التكيف في جانبها التمثيلي الذي يهدف الى التعامل مع الواقع بتسخيره تقتضي خلق الوسائل المحقّقة لهذا الغرض، ففي مستويات دنيا يخلق الانسان الفأس والمحراث وما إليها وفي مستوى آخر يخلق اللفظ والعبارة. وتعتبر الكلمات اهم مظهر حقيقي لامتلاك موضوعات العلم امتلاكاً حقيقياً لا مجازياً وعلى نحو يتيح التصرف في موضوعاته تصرفاً حقيقياً، ذلك ان خلق الكلمة الدالة على الموضوع تتيح الاستغناء عن الموضوع والتعامل به ومعه في نفس الوقت بنوع من الرمز اي بنوع من التجاوز. هذا التعامل والامتلاك شبيه بالتعامل بالعملة النقدية في الحياة اليومية وإن كان اقوى منه واعمق، ومن ثم فثروة الكلمات دليل على الغنى بالموضوعات التي يتصرف فيها الكائن البشري. يضاف الى ذلك ارتفاع القدرة في التصرف بالكلمات في عبارات متنوعة وعلى وجوه مختلفة وهو يشبه ايضاً مهارة الشخص في التصرف بالعملة النقدية ينميها وإن كان ايضاً اعمق.

ان القدرة التعبيرية تتيح فرصة بناء الواقع وتشكيله على نحو رمزي مواز له.

وان تدخل القدرات التعبيرية اللغوية في عملية التجاوز المرتبطة بالواقعية الروائية تعطي هذا العمل بعض خصوصياته.

يضاف الى ذلك تدخل القدرات التخيلية، نتساءل ما المتخيل؟ ويكون جوابنا ايضاً بعيداً عن نهج التعاريف الجامعة المانعة واقرب الى نهج إجرائي. ان المتخيل هو ما يختلف سلوكنا إزاءه، وبالتالي موقفنا منه اختلافاً جذرياً عن سلوكنا (وبالتالي موقفنا) من الواقع الموضوعي. ان الموضوع الواقعي هو الموجود فزيقياً والموضوع المتخيل هو الموجود صورياً؟ هو الموجود في غيابه إذا كان الواقعي الموضوعي هو الموجود في حضوره.

هذا التمييز بين الواقعي والمتخيل يجب ألا يسلمنا إلى اعتقاد انه يساوي التمييز بين الموضوع الواقعي وبين التجريدي العقلي بعبارة اخرى. إن اهم توضيح هنا هو ان المتخيل حسي. فالقدرة التخيلية تعتبر قدرة حسية (وليست حاسة) إذا قورنت بالقدرة التجريدية، وموضوعها كذلك اذا قورن بالموضوعات العقلية التجريدية. إن تخيل موضوع هو رسم صور حسية لهذا الموضوع في غيبته. ومن هنا تكون القدرة التخيلية هي إحدى المظاهر الاصلية للقدرات الابتكارية او إحدى مكوناتها. فالتخيل يتم انطلاقاً من الواقع الموضوعي المحسوس ليصور على غرارة موضوعاً

محسوساً قد تغيب فيه التفاصيل اذا قورن بالادراك. ولكنه في حدوده العامة وأشكاله يبقى مرتطاً بالمدرك المحسوس. فالشكل المتخيل غير تام ولا محدد رغم انه محدود في اطاره العام ما دام في اطار التصور قبل ان يتحدد بالعبارة او التشكيل. بمعنى آخر ان الشباك الحديدي المتخيل رغم محدوديته في التصور كمتخيل لا تستطيع ان تعالجه باحصاء نوع من تعاريجه الا اذا نقلته من اطار الصورة المتخيلة من اطار (حسي) الى اطار (محسوس)، ومن محدود الى محدّد.

وهكذا يكون المتخيل مظهراً من مظاهر التجاوز للواقع بل يمثل ما تتميز به ظاهرة التجاوز لدى الكائن البشري وذلك باعتبار ما سبق من ان التجاوز هو احتفاظ بالواقع وإنهاء لحالته التي كان عليها قبل التجاوز بتغيير او تطوير او تشكيل جديد، وبوجه خاص بخلق تركيبات جديدة.

ان اضافة مفهوم المتخيل على هذا النحو الى مفهوم المعبر عنه لغوياً اي اضافة نتاج القدرة التعبيرية اللغوية الى نتاج القدرة التخيلية يمثل مزيداً من تركيز صفات الواقعية الروائية باعتبارِهِ متحاً من الواقع الموضوعي الفزيقي، وتشكيلاً لواقع روائي عبر عملية التجاوز.

الواقع الروائي:

ما طبيعة هذا الواقع؟ انه حتماً ليس الواقع الفزيقي، ليس الوجود الفزيقي، لكنه واقع ووجود مغاير يمثل تركيبات غير واقعية فزيقياً ليس لها وجود فزيقي ولكنها بالنظر الى اسسها وعناصرها الفزيقية ممكنة ومحتملة.

ان الامكان الفزيقي يعني عدم التناقض مع قوانين الطبيعة وفي حالة الواقعية الروائية يمكن استبدال قوانين الطبيعة بقوانين المجتمع. او توسيع مفهوم الطبيعة بحيث يصبح شاملاً لقوانين المجتمع.

أما الاحتمالية (كون الواقع الروائي محتملاً) فيقصد به هنا القابلية للبرهنة بالعقل او بالتجربة. فالواقعية الروائية عبر عملية التجاوز تقدم لنا تركيبات ممكنة ومحتملة للواقع اي بالتالي غير موجودة تجريبياً ولكنها متسقة مع القوانين العامة للطبيعة (وللمجتمع بصفة خاصة) وتحتمل ان يقوم عليها البرهان والدليل.

وبقدر ما تتاح الفرص لتركيز هذا الامكان والاحتمال للواقع الروائي، أي بقدر ما يتاح للكاتب من أدوات ووسائل وصفات منها حذقه لفنه وثقافته ووعيه بقدر ما يتيح هو أيضاً بدوره الى عالمه الروائي مزيداً من تشبع بصفات الممكن والمحتمل اي بالتالي ان الكاتب الروائي يتنبأ في ضوء الممكن والمحتمل كما يتنبأ اي عالم او باحث مع عامل النسبية طبعاً. وصدق التنبؤ والتوقع في الواقعية الروائية نتيجة مباشرة لصدق التحليل والقدرة على التركيب. فالعمل القصصي والروائي بصفة خاصة باتجاهه الواقعي مجال اصيل من مجالات التحليل الاجتماعي والنفسي ومجال

دار ابن رشد للطباعة والنشر

صدر حديثا

جمهورية الريف وعبد الكريم الخطابي
مجموعة باحثين
ترجمة: صالح بشير

الطريق إلى غريكو
نيكوس كازانتزاكي

معارك ثقافية في سوريا
اعداد
بوعلي ياسين
نبيل سليمان
محمد كامل الخطيب

قلب الظلام
جوزيف كونراد
ترجمة: نوح حزين

مجموعة شهادات ووثائق لخدمة تاريخ زماننا
رواية - صلاح عيسى

العشق والموت في الزمن الحراشي
الطاهر وطار

ذئب البوادي
تعريب النابغة الهاشمي

حكاية بحار غريق
ترجمة: محمد اليوسفي

يصدر قريباً:

إيران من الثورة الدستورية
حتى الثورة الإسلامية.

ربيع أسود - هنري ميللر - ترجمة أسامة مندلجي.

كورنيش المزرعة - بناية موسى
ص.ب: ٥٥٣٧ / ١٤

للتركيب تبعاً لذلك، وهذا بدوره يضاف إلى كل ما سبق ليزيدَ من تعميق خصوصيات الواقعية الروائية.

وتبقى مختلف التقنيات الروائية المعروفة التي تتضافر حسب نضج استخدامها لترسم المصالح النهائية للواقعية الروائية وهي تقنيات لا داعي لذكرها أو وصف اثرها وطبيعتها.

إن هذا المستوى من عملية الإبداع الروائي الذي يتداخل فيه ويلتقي الواقع المتخيل والممكن والمحتمل والتحليل، والتركيب والرصد والتنبؤ هو بالذات المستوى الذي يلتقي فيه ويتداخل الذاتي والموضوعي معرفياً وفنياً.

فمن ناحية أولى يصعب الحديث عن موضوعية الروائي موضوعية صرفة كما لا يمكن الحديث عن ذاتيته بصفة خالصة، ومن ناحية ثانية فكما يكون الواقع الفزيقي موضوعاً لعملية التجاوز ومن ثم الإبداع فكذلك الذات تصبح قابلة لأن تكون موضوعاً لنفس العملية، ومن هنا ضروب رسم الذات في الأعمال الروائية مباشرة أو عن طريق غير مباشر عبر المواقف والشخصيات، وخاصة ذلك الرسم الذي يتسم بالسخرية أو الهجو وما شابه ذلك والذي نعرفه في نماذج أدبية كثيرة عبر العصور والثقافات والذي ان كان بالفعل يمثل مادة خصبة لدراسة على مستويات عدة فهو يمثل هنا تلك الدلالة القوية في العلاقة بين الذاتي والموضوعي والتي تكون سمة بارزة في الواقعية الروائية.

إن نفس التفاعلات ونفس الكيمياء إذا صح التعبير تظل ماثلة في جميع مستويات ابداع من هذا النوع فلتكن الذات نفسها كموضوع للتجاوز وبالتالي للإبداع الروائي الواقعي، فتعامل الكاتب مع ذاته لا يخرج عن تفاعلات الواقع المتخيل الممكن المحتمل، الذات- الذات، الذات- الموضوع- التحليل- التركيب الخ. معنى ذلك ان تعامل الكاتب مع ذاته ليس فيه ما يبرر ان يكون اكثر واقل ذاتية أو موضوعية بالنسبة لتعامله مع موضوعات اخرى، وكل مبرر يلتمس في هذه الحالة يمكن ان يوجد له نظير في الحالة الأخرى المناقضة.

الكتابة- الموقف

إن الروائي اليوم بدافع انه يتفاعل مع عصره وان وعيه مرتبط بتثقيف بيئته على الأقل؛ لا يمكنه ان يقف موقف الحياد من واقعه فإذا كنا قد فهمنا الواقعية الروائية. في علاقتها بالواقع من التحليلات السابقة فلا بد ان نتساءل عن موقف الروائي وهو يتجاوز واقعه ليشكله على نحو ممكن ومحتمل. نؤكد هنا ان هذا الموقف هو ما يتوج سمة الواقعية الروائية والعمل الروائي بإمكانياته اللامتناهية في قابليته للتحليل يتيح فرصة لا تضاهى في اتخاذ الموقف الاجتماعي إجمالاً او تفصيلاً متعرجاً مع تعرجات الذات- الموضوع، ان هذا بالتالي يعني ان الموقف في الواقعية الروائية ضروري لأنه يكمل صورة (المثال) الممكن المحتمل والمتخيل. بل نقول إن المتخيل والممكن والمحتمل هي تجليات الموقف الاجتماعي وبالتالي فنحن مرة اخرى امام سؤال حول وظيفة التجاوز ونحن مباشرة امام سؤال حول وظيفة الواقعية الروائية؟.

إذا كنا قد لاحظنا ان مستوى التجاوز من أجل التجاوز يمكن ان يحيل إلى طرح سؤال عن انحراف التجاوز المبدئي الذي كان كعملية للتكيف يسعى لتحقيق وظيفته ويلبي احتياجاً. فهل نحن امام سؤال جديد، امام عودة إلى ذلك التجاوز الوظيفي البدائي؟.

ربما، ولكن هل نحن على يقين من ان جواب سؤالنا عن التجاوز من أجل التجاوز يكون إيجابياً؟. بعبارة اخرى هل نحن على يقين من ان التجاوز من اجل التجاوز قد تجسد في فترة ما من تاريخ الأدب والفكر؟ وهل نستطيع إثبات ذلك؟

إننا إذا اردنا ان نكون اكثر تنظيماً في العرض ربما يلزم ان نميز في الوظيفة هنا، بين ما له علاقة اكثر بالذات من جهة وما يعود على المجتمع من خلال الموقف الروائي للكاتب من جهة ثانية. وربما امكن ان نتحدث عن امتلاء الذات والاكتفاء والتعويض والاعلاء، بل وعن شعور الكاتب بخطر يهدد علاقة الأنا بالآخر ومن ثم تأتي وظيفة الإبداع كمحاولة لإعادة ربط الجسور وتحقيق التوافق او إعادة الاندماج كما يمكن من جهة اخرى ان نتحدث عن الرِّيادة ومسؤولية الثقافة ووسائل التغيير وتفاؤلية البطل الروائي وفعاليته وإيجابيته.

لكنني افضل تجاوز هذا وذاك معتمداً في الختام نفس النّهج الإجرائي فألاحظ ان وظيفة الأدب والرواية بالذات ليست وظيفة السيف او الفأس او البندقية انها وظيفة تحليل وتركيب وتعبير، وظيفة وعي وتشريح للوعي ونشر للوعي، وظيفة تعرية وتجسيم وظيفة تسجيل وشهادة...

إنها دائماً ليست وظيفة السيف أو الفأس او البندقية.

اتكون اقل من ذلك؟ ممكن.

اتكون اكثر من ذلك؟ محتمل.

والواقع المؤكد انها غير ذلك.

مبارك ربيع

قريباً

سوسيولوجيا الثقافة والأدب

العدد الثاني للسنة الثانية من مجلة

الفكر العربي

التي تصدر عن « معهد الإنماء العربي »